زهرة الجبل

للكاتب جيوفانى دى ناقا
بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة

لما بلغت قرية مورجان نزلت بفندق «رأس الجن» وقد أطلق هذا الاسم على الفندق نسبة إلى جبل شهير هناك فى قمته صورة رأس مخيفة . وأهل القرية يروون عنها الأخبار ويتناقلون الأساطير . أما القمة ذاتها وهى إحدى قرى مقاطعة فاليه فهى راقدة فى حضن الوادى كأنها وديعة ثمينة فى يد غادة حسناء يحرسها أحد الجبابرة . وكان الناظر يرى عن يمينه جبلا آخر اسمه المنظر الجميل ؛ وما أغرب التفاوت بين الجبلين ! فان المنظر الجميل كان كأنه كتلة من الزمرد القاتم لكثرة ما فيه من الأشجار الخضراء والأجمات الملتفة والأدغال القائمة . وبقدر ما كان جبل رأس الجن جهنمياً قاحلاً كان جبل المنظر الجميل خصباً غضا . فكأنما يرى الناظر إليهما مثال الخير ومثال والشر قد اجتمعا معاً ، فان جبل المنظر الجميل تتسلقه الأبقار لترعى الكلأ الذى ينمو بغير غرس وهي تتبع في مرعاها ذكراً ضخما من أفرادها قد علق صاحبه بعنقه جرساً ليسترشد به القطيع ، وذلك الفحل المرشد لا يضل ولا يتيه في ذهابه ومجيئه وصعوده وهبوطه . أما الناظر إلى جبل رأس الجن فما كان يستبين إلا رمزاً مخيفا يبعث إلى نفسه بدبيب الوجل ، وبقدر ما كانت طريق جبل الجن وعرة ومسالكها محفوفة بالمهالك كانت سبل المنظر الجميل سهلة واضحة يتبينها الطفل .

أردت يوما أن أصعد فى جبل المنظر الجميل فهدانى بعض العارفين إلى دليل يأخذ بيدى أو أقتفى أثره إذا بلغنا جهة لا يأمن فيها السائر مخاطر الوحدة . وكان الدليل شيخا بلغ العقد السابع من عمره وقد ترك كل حول فى صفحة جبينه سطراً ، كما سلب كل هم من هموم الحياة من عمره شطراً .

وكان كث اللحية مهيب المنظر حديد البصر كأنه من جوارح الطير ، مهول الخلقة قليل الكلام ، وكان اسمه جيوفانى وقد علمت أنه قضى أربعين عاماً يدل السائحين فى جبال الألب إلى أن بلغ من الكبر عتياً وأمسى عاجزاً عن تسلق شوامخ الجبال المعتمة بالجليد طول العام ففضل العزلة فى تلك القرية ليقضى فى ظلالها أيامه الأخيرة .

ثم صار صامتا وهو يجس الأرض قبل أن يطأها بهراوة مدببة وأنا أتبع له من ظله ، فإذا عبر قناة عبرتها ، وإذا اخترق غابة مرقت فيها ؛ وكنا كلما أوغلنا وعلونا مصعدين فان لنا منظر جديد تنبسط له النفس فشهدنا حقولاً ينبت فيها النرجس الغض فيحمل النسيم إلينا عطرها على أجنحته فنكاد نثمل من العبق . ثم بلغنا غابة سوداء تلامس أشجارها الباسقة مناكب الغمام ، وتناطح أغصانها الشامخة عنان السماء ، ولو كانت فى سهول الهند لأمست عرين الآساد ومكمن النمور ، ولو كانت بباريس الفاتنة لخلق الفرنسيون منها « غاب بولونيا » تشرق فيه الشموس والأقمار ، وتسرح فى مجاهله الغوانى والحور ، ولكنها هنا كغيرها من غابات سويسرا لا ترى فيها إلا نهاراً مشمساً وليلا مقمراً ، ولا تملؤها إلا رائحة الأزهار

ولا يسمع بجوانبها إلا خرير الماء وتغريد الأطيار .
فلما أن توسطنا الغابة وصلنا إلى نهر قوى الانحدار شديد التيار ولكن ماءه صاف كعين الديك، وهو من شدة انهماره يطغى على ضفتيه كأنه ينازع اليابسة ليغمرها، فسألته عن اسم هذا النهر فقال نهر الجياز؛ ولما رآنى قد ارتعت لرؤيته قال لى إنه الآن بالنسبة له فى وقت فيضانه كالحمل والذئب . فانه إذا انهمرت الأمطار فى منتصف الربيع وذاب الجليد فى جبال الجنوب حيث يوجد المنبع اندفعت أمواه هذا النهر بقوة تفوق قوة نهر الرون عند فيضانه ، وعند ذلك يطغى على الضفتين ويطمر الأرض على مسيرة نصف ميل ويحمل فى طريقه كل مايعوقه من أحجار وجذوع أشجار ورمم بالية وأوكار طيور جارحة وأفاع منسابة وذئاب عاوية ، وبالجملة لايفر من طغيانه جماد ولا نبات ولا حيوان . فلما أن توسطنا الأجمة رأيت آثار أشجار ملتفة قائمة كأنها دعائم أعز من عمد المرمر وأرفع من مسلة كليوبطره وأكبر .
فقلت لصاحبي الدليل : ماهذا الذى أرى: أمعبداً أقامه القدماء يتوسلون به إلى أرباب الغابة وآلهة الهواء؟ قال: كلا إنما تلك الأشجار هى بقايا كوخ عتيق له حديث يعد من أساطير الأولين . قلت. هل لك أن تجود على بهذا الحديث فأشكر فضلك. قال: إذن هيا بنا نجلس على بعد من ذلك النهر . فوقع نظرنا على هضبة خضراء فقصدنا اليها وأخذنا مكاننا منها وبدأ الدليل حديثه قال :

كان فى هذا المكان كوخ لامرأة مات زوجها وخلف لها ولداً وقطيعاً من الغنم فكانت تعمل ليل نهار لتحصيل الرزق وإنبات ولدها، وما زالت المرأة تعمل وتدأب وحول يجىء وحول يذهب ، حتى شب الولد وخفف عن أمه العجوز أثقالها، فكان يرعى الغنم ويصطاد الأرانب البرية ويحتطب ويحسن إلى تلك الأم التى قضت أيامها فى تربيته . وفى يوم من الأيام خرج الفتى إلى الغربة يبيع فيها صوف الخراف وخرجت الأم من الكوخ وجلست على ضفة النهر وإذا بها ترى صبية جميلة لايستر بدنها إلا أطمار بالية تبكى وقد سترت وجهها بكفيها ، كما سترت جدائل شعرها كتفيها؛ وكانت بهية الطلعة رغماً من فاقتها البادية وحزنها العميق . فلما أن بصرت بالمرأة مالت نحوها وجلست على مقربة منها وزاد شهيقها وعلا صوت انتحابها ، فتحركت عاطفة الحنان فى قلب المرأة وسألتها ما يبكيها ثم ضمتها إلى صدرها فاطمأنت الفتاة وسكنت عاصفة نفسها وقالت : ليس لى أب ولا أم . وكنت أعيش مع « الراعى الصغير » يطعمنى الفديد ويسقينى الحليب ، ومنذ أمس ذهب عنى وغاب ، فأخذت أبحث عنه وأناديه فلم أعثر به حتى بلغت هذا المكان . فقالت لها الأم: أترضين بهذا الكوخ مسكناً وبى أمًّا وبولدى أخاً؟ فبكت الفتاة ولم تحر جواباً . وكان سكوتها أفصح بيان فضمتها المرأة إلى صدرها وقبلتها فى جبينها وأنهضتها وأدخلتها كوخها وأطعمتها من جوعها وأمنتها من خوفها وألبستها ثياباً بسيطة نظيفة وطيبت خاطرها وأعدت لها مكاناً على المائدة ومرقداً بجوار مرقدها وفرحت بها . ولما أن عاد الولد عشية قالت له أمه إنه رزق فى غيبته أختاً تقاسمه الخير والضير. ففرح

الفتى بها وسماها « زهرة الجبل » وقضى ثلاثتهم المربع الأول من الليل ساهرين ، وقد استأنست البنت بعد وحشتها وأعادت عليهما نتفاً من قصتها . وكان الفتى ينظر إلى « زهرة الجبل » نظر المفتون بجمالها ، ولما أصبح انصرف الولد كعادته وأخذت زهرة الجبل، وقد اطمأنت، تحمل عن المجوز عبء حياتها المنزلية . ولما عاد الفتى أخذت تحادثه بلطف وهو يداعبها والأم تسر بذلك وتبيحه لأنها أملت أن تنشأ فى قلبيهما عاطفة الحب ، فترى بيتها آهلا بنسلهما قبل موتها . وقد دبت فى الكوخ وما حوله حياة جديدة بحول تلك الزهرة الشريدة . وزاد نشاط الفتى وصار يصيب فى الصيد المرمى أكثر مما كان ، ويربح فى بيع الحليب والصوف والحطب أضعاف ربحه الأول . وكان كلما ذهب إلى القرية عاد إلى زهرة الجبل بهدية كمنديل من حرير أو عقد من خرز أو خاتم من معدن ، وهى تتقبلها بفرح عظيم ولا تكتم عنه سرورها

وفى يوم ما انحدر الفتى إلى القرية ثم عاد وجلس مطرقاً كأنه يفكر فى أمر شاغل فلم يداعب زهرة الجبل ولم يعرها التفاته الذى تعودته، فسألته أمه عن سبب انشغاله ، فقال إنه رأي فى القرية راعياً كان يعرفه منذ بضعة أعوام فلم يتعرف عليه للوهلة الأولى لما يبدو عليه من علامات الغنى واليسار . فلما سأله عن مصدر ثروته أجابه أنه تجشم أخطار السفر إلى الدنيا الجديدة التى تنبت أرضها ذهبا وتمطر لجينا ، أنى وضع الرجل فيها قدمه أو كفه لقى مالا ينتظره كأن أمنا الأرض تركت لكل منا إرثا يطالب به فى تلك البلاد المجيبة، فأقام بها بضع سنين وأحرز من المال ما أحرز ، وأنه ما عاد إلا زائراً وسوف يرجع إلى بلاد المال والحرية فيوالى العمل حتى يملك ثروة بسفائنه أو منجما بدفائنه . فلما رأته الأم مشغول البال يكاد الحسد يأكل قلبه وحب المال يملك نفسه نظرت إليه نظرة استعطاف، ونظرت إلى زهرة الجبل وكانت صامتة ، وكأن نفسها الطاهرة النقية قد أشرفت على المستقبل الرهيب ، فقالت الأم بعد طول السكوت وقد جالت الدموع فى عينيها : إننى ياولدى لا أعوقك عن السفر فسافر إن شئت فى طلب المال إن كنت لا تقنع بعيشتنا. وكأنما لم يدرك الولد أن فى هذا الكلام ما فيه من الاستعطاف . وكان حب المال ، والطمع فى تحقيق آمال مبهمة قد أعياه عن حب الوالدة وأنساه كل ما قاست فى سبيل تربيته ، فلم يشأ أن يجيب نداءها وكانت تظن أنه سيبقى بجانبها فى شيخوختها ولكن محبتها وكرامتها أبتا عليها أن تلح وقد علمت بفطرتها وخبرتها أن الشباب إذا تعلق بأمنية لا يتحول عن تحقيقها . أما زهرة الجبل فقد أدركت كل معنى ما دار من الحديث بين الأم وولدها ولكنها لم تستطع الكلام بل لم تكن تدرى ماذا يجب أن تقول ولكنها أدركت أن سعادتها فارقتها، فأخذت تبكى بكاء مكتما ولكن هذا لم يلن من جمود الفتى ولم يحرك من عواطفه ساكنا . فانه فى اليوم التالى تأهب للسفر وترك المرأتين رهن الوحدة والوجل .

سافر الفتى وبقيت الأم وزهرة الجبل وقد أراحتها من عناء الحياة وحمات عنها عبء العمل .

وكانت المرأة إذا ذكرت ولدها ضمت الفتاة إلى صدرها، وإذا تاقت نفسها للحديث عنه حدثتها، وإن دعاها ألم البعد إلى البكاء بكت واستبكتها .

أرسل الفتى خطابا يصف فيه أهوال رحلته وصعوبة الحياة على القادم وشدة الصدمة الأولى التى تصيب كل مهاجم . فكانت المرأة تقرأ وتبكى وتقبل الجواب حيناً وحيناً تضمه على قلبها كأنه جزء من ولدها . ثم جاء كتاب آخر ينبئها بأنه مريض وطريح الفراش، وأن أمله فى الاثراء بل فى الحياة ضعيف ويحن فيه إلى عيشته الهادئة فى الكوخ الجميل ويذكر الجلوس على ضفة النهر ويتحدث بجمال زهرة الجبل . فزاد قلق المرأة وذهب هناؤها وتزعزعت أركان صبرها لبعد ولدها، ولزمها الحزن والبكاء حتى ابيضت عيناها ، وملك ألم الفراق عليها قلبها وهي لا تعلم إلى أى مكان تبعث بخطابها ولا تدرى كيف تستقدمه من الدنيا الجديدة . وكانت تتخيلها لجهلها عالماً آخر غير دنيوى .

ذهب الصيف وأقبل الخريف وأخذت أوراق الشجر تتساقط ذابلة، وبدأ النهار يقصر والليل يطول والغيوم تتلبد والأمطار تهطل ، وتكمل الوحدة وينقطع السبيل على المارة وتلزم الأم وزهرة الجبل الكوخ أشهراً شعرت المرأة بانحطاط قواها وامتنعت عن الغذاء وعجزت عن أهون الأعمال وقل كلامها، فكانت زهرة الجبل تزداد بها عناية كلما رأت شدة وطأة المرض عليها وتقضى الليالى ساهرة تبكى تارة وترقب وجه الراقدة طوراً .

ذهب الخريف وأقبل الشتاء فاشتد الضعف واستعصى الداء ، وكانت زهرة الجبل لاتعلم أن فى الدنيا أفراداً انقطعوا لإسعاف المرضى اسمهم أطباء، وإن عرفت فلم تكن تدرى أين مقرهم ولا كيف تكون دعوتهم. وكذلك الأم فانها لم تفاتحها بشىء ولم تشك يوما اليها حالها . ولكن زهرة الجبل كانت تجمع بعض الأزهار والأعشاب وتستخرج خلاصتها وتقدمها للعجوز قائلة إنها رأت « الراعى الصغير » يجمعها ويحفظها . إشتد الضعف واستعصى الداء وصامت الأم عن الكلام والغذاء فكانت تقضى يومها وليلها راقدة لاينهض لها جفن، وإذا نطقت فباسم ولدها أو بطلب جرعة من الماء تطفىء بها لظى نار خفية تشمل أحشاءها . وكانت زهرة الجبل بجانبها لاتفارقها ولا تفتر عنها طرفة عين، تارة تمسك بيدها وطوراً تحمل رأسها فى حجرها

وفى ليلة من ليالى القر العنيف كانت العواصف تزأر والرياح تزمجر كأنها وحوش سجينة ـ نهضت الأم من فراشها وضمت زهرة الجبل إلى صدرها وسألتها عن ولدها ثم طلبت شربة ماء فأسرعت زهرة الجبل إلى الاناء وعادت به إلى الأم العطشى فاذا هى لاتتكلم، فدنت منها ونبهتها فلم تنتبه، فمسحت جبينها بيدها فاذا هو بارد عليه قطرات من عرق النزع الأخير . ولم تكن زهرة الجبل تعرف ماهو الموت فظنتها نائمة وأرادت ألا تقلقها فبقيت ساهرة بجانبها ولكنها كانت تشعر بما لم تعارسه فيما مضى من الليالى: سكون شامل ووحشة لم تعتدها . كانت الأم تنام ساعة وتستيقظ أخرى . أما هذه الليلة فعندما نامت لم تستيقظ. لم تر زهرة الجبل قبل هذه

المرة إنسانا يموت ، فلم تعرف الموت. رأت أمها هذى بالأمس راقدة وعلى وجهها علامات الألم مما ألمّ بجسمها من الضعف وبقلبها من الحزن ، والليلة رأت وجهها ساكناً هادئاً كأنه مرآة صافية وعلى شفتيها ابتسامة جميلة ولكنها مخيفة — هى ابتسامة الفراق .

كانت زهرة الجبل منتظرة الصباح بفارغ الصبر لعل الراقدة تنهض بعد هذا الصمت الطويل

قبيل الفجر سكنت العاصفة وجفت ماآقى السماء وأطلقت ديانا سراح وحوش الريح فأقلعت إلى الوادى

* * *

كل شيء فى الطبيعة تبدل وكل ساكن تحرك إلا تلك الأم الراقدة فانها مازالت راقدة لا تنهض . فخرجت زهرة الجبل إلى ظاهر الكوخ لعلها تجد الفتى عائداً من رحلته فيشاركها فى إيقاظ والدته . وإنها لكذلك وإذا بها ترى فتى أشعث أغبر قد تلفع بفرو؛ فلما دنا منها تبينته فاذا هو « الراعى الصغير » الذى أضلته فيما مضى من أيامها فبهتت للقائه وسرت برؤيته وسألته عن حاله فطلب منها خبزاً وحليباً فأدخلته إلى الكوخ وقدمت إليه طعاماً وشراباً ، وكان سرورها به عظيما لأنها تمكنت من رد جميل لمن أحسن إليها وصنع بها معروفاً ، ثم حانت منه التفاتة فرأى المرأة راقدة . وإذ رابته ملامحها اقشعر وعرته رعشة الخوف ، وتبينت زهرة الجبل منه ذلك فسألته ، فلم يخف عنها أنها ميتة . وإذ كانت لاتعرف معنى الموت أخذت تسائله فقال إنها فقدت الحياة والحس فلن تنهض ولن تتكلم ولن تبصر ولن تسمع فسألته: أو لو عاد ولدها من الدنيا الجديدة تبقى صامتة !

أجاب الراعى: لو انتقلت الدنيا الجديدة بأسرها إلى هنا فانها لن تعود إلى حالها لأن الحياة فارقتها فقالت له: هل هذا الفراق أبدى بينى وبينها؟ فأجاب الراعى: لا أعلم. فسكتت الزهرة ، ثم طرحت نفسها على صدر الراقدة واندفعت تبكى وتختلج حتى بللت وجه الراقدة وصدرها ببكائها وجاشت بنفسها عواطف الحب والحنان والألم والذكرى . ثم إن الفتى أنهضها وقال لها: لابد من دفنها. فلم تفهم. ولما ذكر لها حالة الجسم الانسانى وسرعة فساده وواجب الأحياء نحو أحبابهم الذين كانوا بالأمس مثلهم امتثلت وطلبت إليه أن يخط لها مضجعاً فى الكوخ حيث رقدت، فقال لها هذا لا يكون ولابد أن يحفر قبرها فى مكان خال، فأشارت إلى الشجرة التى جلست فى ظلها يوم لقائها بالأم على ضفة النهر وأخذ الفتى فأساً وحفر لحداً فى ظل الشجرة . وكانت زهرة الجبل ماشية بجانب أمها تكلمها وتبكى وليس هناك من يشهد ذلك المنظر الرهيب إلا الطبيعة والراعى الصغير ، أما الطبيعة فجامدة صامتة غشوم عمياء وهى التى أوجدت، وهى التى أعدمت، وهى التى تخلق وتعيد ، وأما الراعى الصغير فقد علمه شقاء الحياة معنى ألم الموت ولذة الحياة

دفنت الأم بعد أن كفنها الراعى بأوراق الشجر وكأنما الخلق الذى سول له أن يترك الطفلة فيما مضى دعاه الآن إلى تركها وحيدة بعد الذى رأى ، فقال لها الفتى وهو جامد : أستودعك الله يازهرة الجبل .

وكأن الفتاة لم توجس بعد حالها ، ولم تتبين مغبتها ووحدتها فلم تزد على أن سألته أعائد أنت إلى أمك ؟

فأجاب : لا أم لى ولا والد .

قالت : أين تذهب إذن ؟

أجاب : أطلب رزقا بتعب اليمين وعرق الجبين .

قالت : إبق هنا وارع الأغنام وصد الطير ريثما يعود أخى

فقبل الفتى لا كريما ولا مجيبا سؤلها ، وإنما تبين فى المكان رزقاً فلم يجد بأساً فى البقاء ، وعاشا معاً : هو يقوم بكل ما يقوم به الرجال من أعمال الزرع والرعاية والصيد وتحويل مجرى النهر إذا طغى على الكوخ ، وتقويم جدرانه إذا انقضت من شدة السيل الجارف ، وينحدر إلى القرية يبيع فيها الحليب والصوف ، وزهرة الجبل تعد الطعام وتغسل الثياب وتبكى على قبر أمها وقد فارقتها الوحشة الأولى وذهب تدبير المنزل بما فى نفسها .

وفي أحد أيام الربيع إذ أخذت الطيور فى التغريد وظهر زهر البنفسج في أثناء الغاب وتجدد شباب الطبيعة ونهضت الأرض من رقدتها بعد الشتاء قال الراعى الصغير : ألا تأتين معى بازهرة أريك إحدى العجائب ؟ قالت : أين ؟ قال : عند تلك الشجرة وأشار بيده ، فانطلقا حتى تعبت الفتاة وقالت له : أين الشجرة ؟ قال هناك وأشار بيده ، وكانت تبدو عليه سيما الاضطراب والحيرة ، فسارا حتى كلّ قدماها وقالت له أين تلك الشجرة ؟ فوقف أمامها وقال لها ألا ترين أمامك تلك الشجرة التى تظلك بفرعها بعد أن رويتها بحبك ؟ ألا ترين أمامك الشجرة تحمل قطوفا دانية ، وقد آن لها أن تجنى ؟ ألا ترين تلك الشجرة التى خلقت وخلقت لك ؟

فهتت الفتاة وارتجفت وقالت له : كلا لا أرى .

ففتح الفتى ذراعيه وقال لها : أنا تلك الشجرة . فلم تتكلم ولم تتحرك ، وأخذت تنظر إلى الأفق كأنها تنتظر من الطبيعة أن توحى إليها جواباً . فلما ارتج عليها مالت صوب الكوخ وسار خلفها الراعى الصغير وهو لا يدري ماذا يجول فى صدر زهرة الجبل . أتدرك الحب أم لا تدركه ؟ وهل تريده رجلا لها أم هي لا تفهم ذلك المعنى ؟

ولما بلغا الكوخ رأت زهرة الجبل شخصاً كأنها لم تره من قبل وإلى جانبه شابة مريبة المنظر وقد لبسا ثياباً غريبة ، فمن حذاء يصل إلى ركبته ، إلى قبعة مزدانة بطيور ميتة على رأس المرأة ، وكان الرجل خشناً وحشى الصورة فابتدرها بقوله ولم يسلم : أين صاحبة الكوخ ؟

فأجابت زهرة الجبل : إنها راقدة

قال : ألا توقظينها ؟

قالت : إنها لا تستيقظ من رقادها

قال : وأين هى ؟

قالت : هناك فى ظل تلك الشجرة

فنظر إلي صاحبته ثم نظر إلى الراعى الصغير ، وقد بقى هذا صامتاً متشائماً من هذه الوفدة الغير المنتظرة — ثم تحول الرجل إلى زهرة الجبل وقال لها : ألست أنت تلك الفتاة الوحشية التى اتخذتك ربة الكوخ بنتاً لها منذ ثلاث سنين ؟

قالت : بلى

قال : ومن يكون هذا ؟ وأشار إلى الراعى بطرف سوط كان فى يده . أجابت : هو الراعى

الصغير الذى دفن أمى بعد أن كفنها بأوراق الشجر وهو يقاسمنى متاعب الحياة والقرية

ثم شعرت كأنها تتذكر الصوت والعينين والقامة فقالت له : ألست برنار أخى ؟ ثم أقبلت عليه تريد تقبيله فدفعها عنه بعنف وقال : ألا تخجلين من هذه السيدة ؟ ولكن خبرينى متى كان زواجكما . فلم تجب لأنها لم تدرك سؤاله ولأنها منذ دفعها قال: ألم تذهبى إلى الكنيسة قبل مخالطة هذا الرجل . فظلت على سكوتها لأنها لم تكن تدري من كل ذلك شيئاً . قال : إذن أنتما تعيشان بغير رباط شرعى . لقد عشنا فى الأرض الجديدة وعرفنا أخلاق الأمم ، فأنت وهذا الفتى فى عرف الفضيلة آثمان . كيف جاز لكما أيها الفاسدان أن تدنسا قبر أمنا الطاهر بجرمكما ! . ثم أخذ يتبادل مع رفيقته ذات القبعة المريشة حديثاً بلسان لا نفهمه زهرة الجبل ولا الراعى، ثم استمر فى خطبته وقال : إن هذا الكوخ كوخنا وجئنا نبنى الاقامة فيه ، فسيرا في سبيلكما وكفاكما منا هذا الاحسان ، فاننا نطلق سراحكما ولا نريد أن نودعكما ظلام السجون . ثم خاطب رفيقته ، والتفت إلى المسكينين يترجم ، قال إنها تقول : يا للعار ، أفى هذا المكان الجليل ، وفى تلك البقعة الطاهرة تقترفان إثماً كهذا ! ثم قصد قبر أمه وجثا أمامه ، وكذلك فعلت الأمريكية ، وقال : عفواً يا أماه إذا كان هذان الأثيمان قد أساءا إليك فى غيبتنا ولم يرعيا لك حرمة . أما زهرة الجبل فقد بدت عليها حيرة شديدة ، وكأنها تنبهت إلى ما فى هذه الأقوال والأفعال من سوء المقبي والحرمان ، وقدرت ماسيصيبها من الشقاء بالبعد عن هذا المكان.

ولما نهض برنار ورفيقته وقد نظرا إليهما نظرة الكره والطرد وفاه بذلك فى وجه تلك المسكينة ، هاجت زهرة الجبل ووقفت في وجهه كأنثي أسد غضبى تقول له : كيف تريد أن ننصرف وأنا التى سهرت بجانب أمى أشهراً وعنيت بها ليلا ونهاراً حتى نامت النوم الأخير ، وأنا التى غرست هذا الزرع ورعيت القطيع ، وهذا الفتى هو الذى حول مجرى النهر وشاد جدار الكوخ الذى أراد أن ينقض بعد أن مانى عليه الماء، وهو الذى حفر لأمى مرقدها فى ظل تلك الشجرة ! ألا تريان أنت وهذه المرأة المبرقشة أننى قضيت ثلاث سنين فى الخدمة والعمل وهذا الراعى الصغير لم يلجأ إلى الراحة إلا خلسة لنكسب قوتنا ! لقد عدتما من أرض الأحلام بالمال فاذهبا وشيدا لكما كوخاً غير هذا واشتريا قطيعاً غير قطيعنا . فقال برنار : إنك لاشك معتوهة، ولو علمت أنك تنكرين الجميل ما تركت أمى فريسة لخيانتك . ثم حادثته رفيقته قالت : ومن يدرينا كيف ماتت هذه الأم المسكينة وأنت بعيد عنها؟ ولم تدرك زهرة الجبل معنى هذا السؤال وإلا لافترست تلك الأمريكية الفاسدة القلب التى حاولت أن تنسب إليها أفظع الجرائم

أما برنار فقد أخرج من جيبه ساعة ونظر فيها وقال إن لم تنصرفا لساعتكما من كوخنا وأرضنا استنجدنا برجال الشرطة والقضاء ليمثلوا بكما، فقالت زهرة الجبل: نحن لا ننصرف. فسار برنار ورفيقته فى سبيل القرية ودخلت زهرة الكوخ وباشرت

عملها كعادتها . ولكن الراعي كان بادي الحزن والوجل ، ولم ينتقل من مكانه كأنه ينتظر حادثاً فاجعاً . ولم يخب ظنه فانه لم يكد يميل ميزان النهار حتى عاد القادمان ومعهما شرطي من القرية ، فلما دنوا من الكوخ أسرع الراعي إلى زهرة الجبل وأفضى إليها بما يكون من وراء العصيان . والغريب أن نفسه لم تحدثه بفكرة المقاومة التي تلتئم مع حالة الفتاة النفسية . وفي ظني أن القليل الذي عرفه من الحياة المدنية ترك نفسه فريسة الخوف من القانون ورجاله الذين يمثلون العدل الوهمي . ولكن زهرة الجبل لم تعبأ بقوله إلى أن أقبل الشرطي وطلب إليها بلهجة الآمر أن تغادر الكوخ ، وأن تتخلى عنه لمالكه وأنها إن امتنعت أرغمها بالقوة ، فأخذت المسكينة تحتكم إليه برواية تاريخ حياتها ، وما كان من شأنها منذ تبنتها الأم الراقدة تحت ظل الشجرة. وكاد الشرطي يشفق عليها لأنه لم يرحل إلى أمريكا ولم يقف على قواعد المدنية الحديثة . فلما رآه برنار يوشك أن يضعف حيال قصة زهرة الجبل قال له: أيها الشرطي لست قاضياً ، قم بواجبك . فقال الشرطي للفتاة إن رئيس الشرطة لاشك ينصرها إن هي طرحت لديه شكواها واستنصرته في بلواها . وكانت زهرة الجبل كالفهدة المجروحة فخرجت من الكوخ هائجة لم تحمل شيئاً من متاعها إما شمما وإما اعتقادا منها بأنها بلا ريب عائدة ، فتقدم برنار إلى الكوخ وعاد بخرقها وحليها الموهمة ، وبينها ما كان قد أهداه إليها وقذف بكل ذلك في النهر. وبهذا أضاف الأذى إلى المهانة وزاد الطين بلة . سارت الفتاة والشرطي وخلفهما الراعي وقد شيعتهم الأميركية بضحكة عالية

فلما بلغا القرية لفتت زهرة الجبل الأنظار بغرابة زيها وما يبدو عليها من علائم البداوة والجفوة وخشونة المظهر والملبس . ولما مثلت بين يدي رئيس الشرطة سألها عن اسميهما ولقبيهما وسنيهما وصناعتهما ومسكنهما وعلم جراً ، فلم يحيرا جوابا . فسأل الشرطي عن حالهما فأبدى له ما رأى وسمع، ثم تقدمت اليه زهرة الجبل وهي مملوءة بالأمل في العدل الانساني، وروت له كل ما جرى لها، وكان أثناء ذلك ينظر اليها تارة معجباً بجمالها وبساطة نفسها وبطولتها، وطوراً مستخفاً بشأنها وساخراً من دعواها . فلما أن فرغت سألها عن عقود الملكية ! فلم تقدم ولم تؤخر . فنظر اليها ثم أصدر حكمه بأن القانون لا يطيها على (العين حقاً) وانها لم « تضع يدها » بسبب صحيح ! وأن حكمه (نهائي لا يستأنف) ونصح لها ألا تعود إلى الكوخ لئلا يضطر إلى حبسها . والأولى لها ولرفيقها أن يبحثا عن عمل أو يغادرا المقاطعة لئلا يعاملهما معاملة المتشردين وإنه يمهلها أربعاً وعشرين ساعة ! ثم أمر الشرطي بطردها . فخرجا ، وقد غابت الشمس . أما زهرة الجبل فانها ما كادت تخرج من غرفة الضابط وتخطو عتبة باب (دار العدل والقانون) خارجة حتى تركت الراعي الصغير الذي لم تتبين فيه أخاً ولا صديقاً ينفع وسارت على وجهها وحدها حتى خرجت من القرية، وما زالت تقودها قدماها رغم إرادتها حتى بلغت مكاناً يطل على الكوخ ، فلزمته كلما نظرت اليه حنّت

ثم تملكتها عواطف الغيظ والمقت لساكنيه، وكانت أيام الربيع الأولى قد فكت أغلال الجليد من رؤوس الجبال ودفعت بالمياه المكرة والأحجار المتناثرة فى مجرى النهر إيذانا ببداية الفيضان فعاشت زهرة الجبل أياما فى الغابة كجباتها الأولى، وكانت تقتات من ثمر التفاح والقطن البرى على مافيها من غضاضة ومرارة، وتروى ظمأها من ماء ذلك النهر الذى صحت عزيمتها على أن يكون فيه إطفاء لنار عاطفة الانتقام التى ولدتها نظرات الشقاء والكره الذى ذاقته فيما رأت. ولما مضت عليها أيام أصبحت كبعض الوحوش التى تسكن الأدغال، وتغير مظهرها كأنها لا يهدأ بالها إلا أن تنتقم من عدوها. وكانت إذا تنفس الفجر وتفرجت وجنة الأفق بأرجوان الصباح وخشيت أن تصادف برنارا ورفيقته أوغلت فى الغابة وأمعنت وكأن خشخشة أوراق الشوح ومطارفه، ووسوسة أوشحة النبات وملاحفه، وانحدار المياه وهديرها، وهبوب الرياح وصريرها، أصوات تبعث فى نفس زهرة الجبل حب الانتقام. ولم يكن خفقان النسيم وهتاف الطير بصوته الرخيم، ولا تغريد البلبل بالترنيم والتنغيم، لتعوق البنت الموتورة عن الانتقام. حتى إذا جن الليل وأقبل الظلام سكنت الفتاة إلى مكان منفرد فى غيابة الغابة أو اختفت فى أغوار الأجمة، فلما أن توسط الربيع وأقبل الفيضان نهضت زهرة الجبل خفية فى السحر والطبيعة نائمة، ودنت من ضفة النهر من مكان يشرف على الكوخ وأخذت تحفر بمعض الأغصان مجرى صغيراً يشبه الغدير لتحويل ماء النهر. وما زالت تعمل فى الحفر والماء يندفع بقوة انحدار السيل حتى اتسعت الثغرة ثم أخذت تنقل حجارة كبيرة إلى وسط النهر لتكون سداً فكانت. وكاد يندفع النهر بمائه إلى حيث حفرت له زهرة الجبل، وزاده انهماراً وجود الكوخ فى وهدة منخفضة. ولما أن رأت فيضان النهر فاض السرور فى جوانحها وشاع الطرب فى فؤادها وهنأت نفسها على أنها فازت ببغيتها، وقضت على عدوها وعدوتها. وإنها لكذلك وإذا الماء كالطوفان يطمر الكوخ ويغمره ويزعزع أركانه، ويغرق جذوع الأشجار ويهلك سكانه، وأخذت جدرانه التى أقامها الراعى الصغير تتداعى ثم تنقض، وعلت الأصوات بالاستغاثة ولم يلبث الكوخ أن تهدم على من فيه، وجرفته الأمواء بعد أن أغرقتهما؛ والفتاة تنظر إلى الخراب الذى صنعته يداها وهي تعتقد أنها أقامت ميزان العدل وأنها اقتصت لنفسها ممن أذلها وطردها. وكان الصبح قد تنفس ونثر النور فى الشرق ياقوتاً من أشعة الشمس، فرأت زهرة الجبل قبر أمها وقد نبشه الطوفان فبدت جيفتها على سطح الماء وقد عراها الفساد ومرت أمامها مسرعة كأنها سفينة تمخر عباب بحر الأبدية؛ فلم تطق الفتاة رؤيتها وظنت أنها أساءت إليها بانتهاك حرمتها فألقت بنفسها وراءها واستشهدت فى سبيل الذنب الذى تخيلت أنها جنته على من أحسن إليها. وهكذا ابتلع النهر أربع جثث عاشوا جميعاً على ضفتيه، وماتوا بين حافتيه، وهذا باسم القانون والعدل

فلما فرغ الدليل من حديثه كانت الشمس قد آذنت بالمغيب فعدنا إلى القرية

محمد لطفى جمعة
(٤)